

ملحمة الملاج المصري

أ.د. حامد طاهر

في أعمق أهمناق المغابات

و قبل مجيء التاريخ بآلاف السنوات

كان يسير بلا هدف

إلا من شربة ماء

أو حبة ذاكهة

أو بعض المحسرات

وأخيراً وجد النيل

يسير مهيباً في خطوات متقدّمات

تقاذف فيه عشرات الأسمالك الفضيات

وعلى جنبيه تخيل يعلو ،

ويطأول هامات السحب البيضاء

ألقي بالجسد المنهوك على طين الأرض السمراء

وصارت جنته المدحراً !

في اليوم التالي حمل المفاسن المفولادية

وهو ي نحو الأرض يقبلها ، ويقبلها ..

فتباذه أطيب ما فيها من خيرات

أطنان المقموع، وأجولة المفول ،

وأصناف المخضراوات

وبداخل منزله

راح يربى بعض البقرات

بقرات كانت تمنحه اللبن المصافي ،

والجلباب الدافئ ، والدهنيات ..

كان الفلاح المصري بسيطا

يزرع ، يحصد ، ويزورج

في خاتمة الموسم أولاده

وببارك في أروقة المعبد أحفاده

محتملاً أغلب ما يملك للكهنة من قربان

ملتزماً بالسجدة للفرعون

إذا ما مر بموكب العائش

بين الشطئان !

ظل الفلاح المصري صمودنا

لما يتكلم حتى حين تؤرقه الكلمات

وخلوقنا يسعى في دعم المضعفاء

ويجلس بجوار النيل يصلّي ..

في زمن المقطوع ،

وحين يفيض الفيضان

وإذا أوقف في محكمة الموتى

أقسم أن يديه ما لوثتا المنيل ،

ولما ألقى فيه أعواد المشوفان !

كان الملاج المصري خبيرا

بخبايا الأرض السمراء

يعرف كيف تجود ؟

ومتي تلضحها الشمس الغضبي ،

فتشرقها

وبأي مدار يفرشها البدر إذا اكتمل

بضوء مملوء بالأزهار

لكن الملاج المصري تذاجا يوما

من أيام الصيف الحارقة .. بجيش جرار

هاجم من ذاهية المشرق

وشتت حامية الجند .. بلا إنذار

وتوصل للفرعون الأعلى ،

أسقطه من أقوى برج فوق الأسوار

سقط المفرعون جذادات ، وأساور فضيات ، ونضار !

وتبددت المعتقدات المحفورة

في أعمدة المعبد ، والأحجار ..

لكن الكهنة نفخوا في المبخرة الكبري ،

واعتبروا المخاري ملكا ، وأنها ، وسليل الأقدار !

رجع الملاج المصري إلى منزله الطيني ،

وراح يحدق في أطفال من غير عشاء

ورأى نظرة زوجته ترمقه باستجداء

لم يعرف طعم النوم ، طول الليل ،

وحين تبدي المفجر ، مشي نحو الأرض السمراء

يقاسمها المشكوي والماعياء

ويوفر ما تنتجه للغرباء

حتى المسنبلة المصفراء !

فإذا جن الليل

سرى فوق المشط

وأخرج من أعماق المروج

مواويل الصبر الصماء !